بسم الله الرحمن الرحيم

وسلامٌ على عبادِهِ الذين اصطفى

« أما بعد » فهذا شرح ديوان المتنبي * أُخْرِجُهُ بعد شرحي ديوانَ حسَّان الذي أخرجته في العام الماضي ورآه القراء وعرَفوا من مقدمته ما كابدتُ فيه ،

---

* أبو الطيب المتنبي هو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكندي الكوفي ، ولد بالكوفة سنة ثلاث وثلاثمائة في محلة تسمى كندة فنسب اليها وليس هو من كندة التي هي قبيلة بل هو جعفي القبيلة« بضم الجيم وسكون العين» وهو جعفي بن سعد العشيرة بن مذحج — واسمه مالك — بن أدد بن زيد بن يشجب ابن عريب بن زيد بن كهلان ، نشأ بالكوفة كما ترى ويقال ان أباه كان سقاء بالكوفة ثم انتقل إلى الشام بولده ونشأ ولده بالشام و إلى هذا أشار بعض الشعراء في هجو المتنبي حيث قال

أيُّ فَضْلٍ لِشَاعِرٍ يَطْلُبُ الفَضْـ ... ـلَ مِنَ النَّاسِ بُكْرَةً وَعَشِيَّا

عَاشَ حِيناً يَبِيعُ فِي الكُوفَةِ المَا ... ءَ وَحِيناً يَبِيعُ مَاءَ المُحَيَّا

قدم الشام في صباه وجال في أقطاره وما زال إلى أن ادعى النبوة في بادية السماوة وتبعه خلق كثير من بني كلب وغيرهم فخرج اليه لؤلؤ أمير حمص نائب الأخشيدية فأسره وتفرق أصحابه وحبسه طويلا ثم استتابه وأطلقه ومن ثم سمي المتنبي ، ثم التحق بالأمير سيف الدولة ابن حمدان سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة وما زال منقطعاً له حتى وقع بين المتنبي وبين ابن خالويه النحوي كلام في مجلس من مجالس سيف الدولة فوثب ابن خالويه على المتنبي فضرب وجهه بمفتاح كان معه فشجه وخرج ودمه يسيل على ثيابه فغضب وفارق سيف الدولة وذهب إلى مصر سنة ست وأربعين

وفى الحق أنى لم أعان فى المتنبى ما عانيت فى حسان على بُعد ما بينهما ، وذلك أنّ المتنبى ربُّ المعانى الدقاق — كما قال — فللذهن فى شعره جولان ، وما دام هناك ذهنٌ يلقف ، وذوق يستدقّ ، وملكة بيانية ، وبصرٌ بمذاهب الشعر ، أمكن ادراكُ ما يترامى اليه مِثلُ المتنبى ولو بشىء من الجهد اللذّ والتعب المريح

وثلاثمائة ومدح كافورا الاخشيدى، وكان يقف بين يدى كافور وفى رجليه خفان وفى وسطه سيف ومنطقة ويركب بحاجبين من مماليكه وهما بالسيوف والمناطق، ولما لم يرضه كافور هجاه وفارقه ليلة عيد النحر سنة خمسين وثلاثمائة ووجه كافور خلفه رواحل إلى جهات شتى فلم يلحق، وكان كافور وعده بولاية بعض أعماله فلما رأى تغاليه فى شعره وسموه بنفسه خافه وعوتب فيه فقال ياقوم من ادعى النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم أما يدعى المملكة مع كافور ؟ فحسبكم ، ولما كان بمصر مرض وكان له صديق يغشاه فى علته فلما أبل انقطع عنه فكتب إليه : وصلتنى — وصلك الله — معتلا ، وقطعتنى مبلا ، فان رأيت أن لا تحبب العلة إلى ، ولا تكدر الصحة على ، فعلت إن شاء الله : ولما رحل عن كافور قصد بلاد فارس ومدح عضد الدولة بن بويه الديلمى فأجزل جائزته (وكذلك مدح ابن العميد) ولما رجع من عند عضد الدولة قاصداً بغداد ثم إلى الكوفة فى شعبان لثمان خلون منه عرض له فاتك بن الجهل الأسدى فى عدة من أصحابه وكان مع المتنبى أيضا جماعة من أصحابه فقاتلوهم فقتل المتنبى وابنه محسد وغلامه مفلح بالقرب من النعمانية فى موضع يقال له الصافية وقيل جبال الصافية من الجانب الغربى من سواد بغداد عند دير العاقول وذلك يوم الأربعاء لست بقين وقيل لثلاث بقين وقيل لليلتين بقيتا من شهر رمضان سنة أربع وخمسين وثلاثمائة ، ولما قتل رثاه أبوه القاسم مظفر بن على الطبسى بقوله

لاَ رَعَى اللهُ سِرْبَ هَذَا الزَّمَانِ ... إِذْ دَهَانَا فِى مِثْلِ ذَاكَ اللِّسَانِ
مَا رَأَى النَّاسُ ثَانِىَ الْمُتَنَبِّى ... أَىُّ ثَانٍ يُرَى لِبِكْرِ الزَّمَانِ
كَانَ مِنْ نَفْسِهِ الكَبِيرَةِ فِى جَيْـ ... ـشٍ وَفِى كِبْرِيَاءِ ذِى سُلْطَانِ
هُوَ فِى شِعْرِهِ نَبِىٌّ وَلَكِنْ ... ظَهَرَتْ مُعْجِزَاتُهُ فِى الْمَعَانِى

ذلك إلى أن المتنبي مخدوم وشروحه مُتوافِرة ، ومادته زاخرة ، فكان شرحه لذلك يكاد يكون هينا لينا لا ارهاق فيه لخاطر ، ولا اعنات لروية . وهنا قد يبدو لك أن تقول . واذا كان المتنبي مخدوماً وشروحه متوافرة كما تزعم فعلام هذا الشرح وما حاجتنا اليه ؟ فعلى رسْلك يا هذا . فالمتنبي وان كانت شروحه كثيرة الا أنها

« اه ملخصا من ابن خلكان »

شيء من أخلاقه وشمائله

حدث علي بن حمزة قال : بلوت من أبي الطيب ثلاث خلال محمودة وذلك أنه ما كذب ولا زنا ولا لاط ، وبلوت منه ثلاث خلال مذمومة وذلك أنه ماصام ولا صلى ولا قرأ القرآن . . . أما هذه الاخيرة وهي أنه ماقرأ القرآن فأني أظن الراوي يريد أنه ماقرأ القرآن تهجداً وتعبداً والا فأن مثل المتنبي في فضله وأدبه ودهائه لايفوته أن يقرأ القرآن الكريم ويتدارسه ويستظهره ! وأي قيمة لأديب لم يقرأ القرآن ! وقال ابن فورجه : كان المتنبي رجلا داهية مر اللسان شجاعا حافظا للآداب عارفا بأخلاق الملوك ولم يكن فيه ما يشينه إلا بخله وشرهه على المال . . . أقول وهذا بخل المتنبي هو على الحقيقة مما استتبعه طماحه وكبرياؤه وسموه إلى الرفعة والمجد والعلا . وقد سئل في ذلك فقال : إن للبخل سببا وذلك إني أذكر وقد وردت في صباي من الكوفة إلى بغداد فاتخذت خمسة دراهم في جانب منديل وخرجت أمشي في أسواق بغداد ، فمررت بصاحب دكان يبيع الفاكهة فرأيت خمس بطيخات با كورة فاستحسنتها ونويت أن أشتريها بالدراهم التي معي فتقدمت اليه وقلت بكم هذه الخمس بطاطيخ . . . فقال بغير اكتراث اذهب فليس هذا من أكلك ، فتماسكت معه وقلت أيها الرجل دع ما يغيظ واقصد الثمن فقال ثمنها عشرة دراهم ، فلشدة ماجهني به ما استطعت أن أخاطبه في المساومة ، فوقفت حائراً ودفعت له خمسة دراهم فلم يقبل وإذا بشيخ من التجار قد خرج من الحان ذاهبا إلى داره فوثب اليه صاحب البطيخ من دكانه ودعا له وقال يامولاي هابطيخ با كورة باجازتك أحمله إلى منزلك ، فقال الشيخ ويحك بكم هذا ؟ فقال بخمسة دراهم فقال بل بدرهمين فباعه الخمسة بدرهمين وحملها إلى داره ودعا له وعاد إلى دكانه مسروراً بما فعل ، فقلت ياهذا مارأيت

كثرةُ قِلّة . . . ذلك أن المتنبي وان كان من حسن حظه أن شرحه وعلق عليه ونقده وتعصب له وعليه نَيّف وخمسون أديباً بَيْدَأَنَّ المُتداوَل من شروحه إنما هو العُكْبَرِي والواحدى واليازجى حَسْبُ ، أمّا الواحدى فَلأَنَّهُ لَمْ يُطْبَعْ إلاَّ في أوربّة وفى الهند فقط كانت لذلك نسخة قليلة التداول فى أيدى الناطقين بالضاد لِنَدْرَتِه وغلاء ثمنه، ومن ثَمَّ كان فى حكم غير المتداوَل . ثم هو — الواحدى — ومِثلهُ العُكبَرِي كلاهما موضوعٌ ذلكَ الوَضعَ الخَلقَ البالى العقيم — بَعثَرَةَ الأبياتِ واثباتَ البيت ثم شرحه ، وهكذا دَوَاليْك — وَضعٌ لا يتفقُ ومِزاج هذا الجيل ولا سيما من يبتغى حفظ الديوان واستظهاره ، هذا الى التحريف الكثير الذى ألَمّ بالواحدى والعُكبرى معاً ، وهنا لايسع المرْءَ إلا أن يأسفَ كلَّ الأسف وتتقطعَ نفْسُه حَسَرَاتٍ جرّاءَ ذلكَ الداءِ الخبيثِ العُياء الذى ألَمَّ ولايزال يُلِمُّ بالمطبوعات العربية — داءِ التصحيف والتحريف — حتى لايكاد يسلم منه كتاب

أعجب من جهلك ! استمت على فى هذا البطيخ وفعلت فعلتك التى فعلت وكنت قد أعطيتك فى ثمنه خمسة دراهم فبعته بدرهمين محمولا ؛ فقال اسكت : هذا يملك مائة ألف دينار ... وأنا لاأزال على ماتراه حتى أسمع الناس يقولون ان أبا الطيب قد ملك مائة ألف دينار . . .

وقد كان أبو الطيب مغروراً إلى أقصى حدود الغرور وكان ذا طماح وزهو وكبرياء بل كان لايطاق غطرسة وشموخا وخيلاء ، ولا تنس قصته مع الحاتمى وما جره عليه هذا الكبر . وكان أبو الطيب مصاباً بذلك الداء داء جنون العظمة ... وكثيراً ما يصيب هذا الداء النوابغ العبقريين ولك أن تجعله علة ولك أن تجعله معلولا . . . وقد كان أبو الطيب عزهاة لايطيبه النساء . . وكان لايشرب الخمر . . وجملة القول ان أبا الطيب كان ذا شخصية من الشخصيات الغريبة وكان عظيما وكان عبقريا وكانت حياته لذلك غاصة بكل ما يجلب له الحب والاشفاق والاجلال من قوم وبكل ما يجلب عليه الحسد والبغض والعداء من آخرين ، شأن كل عبقرى عظيم والله أعلم . . .

عربى . فذهب بجمال التواليف وشوّهَ خَلْقَها وصارَ بها إلى حَيثُ تنبو عنها الأحداق ، وتتجافى عن قراءتها الأذواق ، ويتخاذل الذهن ، ويتراجع الفكر ، ولست أدرى ما مصدر هذا الداء ولا مَن تقع عليه تَبعَةُ هذا الجُرْم هل هو الناسخ بل الماسخ ؟ ولقد حاولتُ أخيراً أن أنسخ رسالة فى سرقات المتنبى بدار الكتب المصرية وكلفت أحد النساخين فى تلك الدار بنسخها ، ولما أتمّ نَقْلَ الكُرّاسة الأولى ذهبت اليه وأخذنا نقابل ما نسخ على الأصل فوجدت الأصل لا يكاد يوجد فيه بيت صحيح ووجدت ما نسخ منه ضِغثاً عَلَى إبّالَةِ . . فما كان إلا أن انصرفتْ نفْسى عن المسألة برُمَّتِها . . . أم هو الطابع وجهله وتهاونه ! ولقد لقيت الألاقى فى تصحيح « بروفات » أوتجارب المتنبى ، ومن قبله حسان حتى لأكون مغالياً اذا قلت إنَّ الجهد الذى يُبذلُ فى سبيل التأليف أهونُ على المرء من الجهد الذى يقاسى فى سبيل التصحيح . وتصوّرْ مقدار ما يَعرُو الانسان من المضض والامتعاض حين يرى الكتاب بعد هذا العناء الذى يبذل فى التصحيح لم يسلم من الأغاليط . ولا تنس أن المؤلف قد لا يفْطن إلى الخطأ المطبعى أثناء التصحيح ويمر به مَرّا ، وعذره فى ذلك واضح وهو أنه انما يقرأ مافى ذهنه لاما هو بين عينيه ومنْ هُنا كان له — للمؤلف — هو الآخر نصيب من هذا الخطأ وان كان عذره فى ذلك قائما . . .

أقول إنَّ عابَ الواحدى والعكبرى هو ماذكرت ، وَضْعٌ لايتفق وروح العصر ، وتحريف كثير شائع فى الكتابين ، ذلك إلى هفواتٍ تلحق كُلاًّ عَلَى حِدَتِه وَقُصُورٍ أو تقصير أو إقصار يُلِمُّ بِسَاحَتِه ، فاذا أردت أن تجتزئ بالعكبرى مثلا وتستغنى به عن غيره فانه لايغنى كل الغَناء ، وكذلك الواحدى ، ويَزِيد الواحدى على العكبرى بأنه لايَحفل بتفسير المفردات ولا بالأعراب ، وبأنه لايفسر كثيراً من الأبيات فكأنه موضوع للمنتهين . ولذا لايواتى الشادِين . أما اليازجى

أو اليازجيان الشيخ ناصيف وابنه الشيخ ابراهيم فهما على فضلهما الذى لاينكر وعلى ماطنطن به الثانى فى ذيل الشرح مما قد يخرج منه القارئ وهو مفعم يقيناً بأن هذا الشرح هو سيد الشروح وهو وحده الشرح الذى طَبَّق المفصل وأصاب مقطع الحق وأوفى على الغاية — أقول إنهما على الرغم من ذلك يَصْدُق عليهما قول الواحدى فى ابن جنى : وأما ابن جنى فانه من الكبار فى صنعة الأعراب والتصريف ، والمحسنين فى كل واحد منهما بالتصنيف ، غير أنه اذا تكلم فى المعانى تبلد حماره ، وَلَجّ به عثاره ، . . نعم وحسبك أن نرجع إلى ماقالاه — أى اليازجيان — فى شرح هذا البيت على انسجامه ووضوحه وروعته

لحَا اللهُ ذِى الدُّنْيَا مُنَاخًا لِرَاكِبٍ فَكُلُّ بَعِيدِ الْهَمِّ فِيهَا مُعَذَّبُ

قالا : يذم الدنيا . يعنى أنها دار شقاء حتى ان من لا هم له لا يخلو فيها من العذاب ، فما الظن بصاحب الهموم ! ولست أدرى كيف لم يفطنا إلى معنى هذا البيت وهو من الوضوح والجلاء كما ترى . . . على أنهما فى شرحهما عامة — لافى شرح هذا البيت — لم يحيدا عن الواحدى والعكبرى قِيدَ أُنْمُلَةٍ فهما عمدتاهما وعليهمامعولهما فادا هما حاولا أن يتفصّيا منهما و يستقلاّ بالشرح دونهما ويأتيا بشئ من عندهما زلت قدماهما وكبا جواداهما أو تبلد حماراهما . . . ووقعا فى مثل ماوقعا فى هذا البيت . . . ذلك إلى أن القسم الذى تولى شرحه الشيخ ناصيف قَصّر فيه وَمَرّض ولم يتعرض لشرح المعانى وانما اقتصر على شرح المفردات — وإلى أنهما — اليازجيين — تركا كثيراً من شعر المتنبى الذى يريان فيه خمشاً لوجه الأدب . و إلى أنهما لم يتعرضا لسرقات المتنبى وذكر الأشباه والنظائر أصلا ، وهذه مزية من المزايا قد وفيناها حقها فى هذا الشرح ...على انّا لانبخس الناس أشياءهم ولا ننكر خصائص الطبائع البشرية وما قد يعروها الْخَطْرَةَ بَعْدَ الخَطْرَةِ من الفتور والانتكاس،وانغلاق الذهن ،وتبلد الحس،و إظلام البصيرة ، وغؤور الروح ، وخمود الذكاء،حتى لقد يخفى أحياناً على العيلم الألمعى وجه الصواب

وهو منه على حبل الذراع وطرف الثمام كما يقولون فيتعسف الطريق ويتخبط تخبط العشواء . . وهذا ابن جنى الامام العالم المجتهد الثبَتِ ، بل فيلسوف اللغة العربية العليم بخصائصها الطَبُّ البصير بدقائقها تراه فى شرحه على المتنبى — على الرغم من ذلك ومن أنه كان معاصراً للمتنبى متعصباً له محامياً عنه وكان اذا سأل المتنبى سائل عن معنى بيت من أبياته يقول اسألوا الشارح — يعنى ابن جنى — وكان — ابن جنى — يراجع المتنبى فى كثير من شعره ويستوضحه المعنى الذى يغزوه — وبرغم ذلك تراه فى كثير من المواضع — كما قال الواحدى — وقد تبلد حماره ، ولج به عثاره . وهكذا تتبعت جميع من تعرض للمتنبى بالشرح أو النقد كابن فورجه والعروضى والتبريزى وابن وكيع وابن القطاع وابن الأقليلى فوجدت لهم جميعاً بجانب حسناتهم سيآت ، وإلى سَدادهم زلات وهفوات . وهذا حقاً من غريب طبائع البشر فسبحان من تفرد بالكمال ، ولقد وجدت ذلك من نفسى مع أن الطريق معبّد والمادة متوافرة ، فقد أكون فى بعض الأوقات مستجما نشيطاً مهزوزاً مُرهَفَ الطَبْعِ مَصْقولَ الذِهن صافِيَ الحس منبسط النفس فأشرح ما أشرح من قوافى المتنبى فآتى بما أرضى به عن نفسى ويعروني له من الطرب مايستخفنى ، وأكون فى أوقات أخرى منقبض النفس مظلم الحس مغلق الذهن قَدما بليدا لاأكاد أذْهَنُ شيأ ، وأكون مضطرا الى العمل فأشرح وأنا على هـذه الحال بعض الأبيات ثم أعود فى وقت أكون فيه على جمام من نفسى إلى ماشرحت وأنظر ماذا قلت فأدهش كيف يصدر هذا من رجل له بقية من فهم وأتهم نفسى حتى لاأكاد أصدق أن شيأ من هذا نَدَّ به القلم . . ثم لاتنس اختلاف القرائح والأفهام والنزعات وان هذا ينزع فى تفكيره نزعة لغوية وذاك نزعة نحوية وذلك نزعة فلسفية منطقية وآخر قد تأثر بالأدب والفن وحسن التخيل ، وأن هذا أصح تمييزاً من ذاك وأنفذ بصيرة وأبعد مدارك وأصفى نفساً وألطف حساً وأكثر ألمعية إذا أُذِنَتْ أذناه شيأ شآها ذهنه . فاذا هم أراغوا تأويل بيت من أبيات المعانى الدقاق تشعبت

آراؤهم وذهب كل فى تاويله مذهباً قد يباين مذهب الآخر تبعاً لتباين قرائحهم ومحصولاتهم كما قال المتنبى

وَلَـكِنْ تَأْخُذُ الْآذَانُ مِنْهُ عَلَى قَدرِ الْقَرَائِحِ وَالْعُلُومِ

وإليك شيأ يحور إليه سر هذا التباين الذى نرى بين الشراح فى تأويلاتهم لمثل شعر أبى الطيب ، ذلك أن المتنبى كان رجلا ما كراً باقعة داهية فكان من دهائه يعمد إلى بعض المعانى التى سُبق اليها فيحاول أن يبعد بها عن أصلها ويُعميها على الناظر فيها ، ويريغها ويديرها عن ذلك حتى لا يُفْطَن الى أن غيره أبوعُذْر هذا المعنى فيلجأ الى التعمية والجمجمة والتعقيد والابهام لأن تلك طريقته كما سنبينه فيجىء البيت متنافر اللحمة ملتاث التعبير لايشف ظاهره عن باطنه ، ولايتجاوب أوله وآخره حتى لـكأنه ضرب من الرقى فيظن بعض الشراح أن هناك معنى دقيقاً عميقاً فيكد ذهنه ، ويجهد فكره ، ويسافر فى طلب المعنى أميالا وهو لايفوت أطراف بنانه ، وينضى اليه رواحل ذهنه وهو على حبل ذراعه ، فيعتسف ويشتط وينحرف عن جادة الصواب كما قال المتنبى

أَبْلَغُ مَا يُطْلَبُ النَّجَاحُ بِهِ الـ طَبْعُ وَعِنْدَ التَعَمُّقِ الزَّلَلُ

وهاك شيأ يرجع إليه ذلك التعقيد الذى نراه فى بعض شعر المتنبى ، هو أن أبا الطيب له حُسَّاد كثيرون من أهل الفضل ومن فحولة الشعراء وأعيان البيان يتعتر بهم على أبواب سيف الدولة فى حلب وتقع عينه عليهم أنى ذهب — فى الشام وفى مصر وفى بغداد وفى فارس ، وكانوا له بالمرصاد يتلمسون له الهفوة والمأخذ ، وكان كثير ممن يمدحهم كذلك شعراء أدباء وناهيك بسيف الدولة وابن العميد ، فكان لذلك كله يحتشد لـكثير من قصائده ويتعمل لها ويتنطس فى ألفاظه ومعانيه ويحتفل ويمعن فى الاحتفال إلى ما وراء طبعه فيجىء بعض نظمه كزّاً جافا معقداً حُرِم طُلاوة الطبع ورونقه وفقد نصف الجمال الشعرى . . .

وهنا لانرى مندوحة من أن نعرض لشيء لم يفطن إليه أحد أو فطنوا إليه ولم يَصفوه أو وصفوه ولكن لم يصفوه الوصف الذى هو به أليق ، ذلك أن المتنبى للأسباب التى أسلفناها ولسبب آخر سنبينه تراه فى أكثر شعره ينقصه التعبير الشعرى ، ويظهر لك ذلك إذا أنت وازنت بينه و بين إمامه فى الصنعة والاحتفال بالمعنى وهو أبو تمام . وإنى لأذكر كلمة لأحد نقدة العرب وهى : إنما حبيب أبو تمام — كالقاضى العدل يضع اللفظة موضعها و يعطى المعنى حقه بعد طول النظر ، والبحث عن البينة ، أو كالفقيه الورع يتحرى فى كلامه ويتحرج خوفاً على دينه ، وأبو الطيب كالملك الجبار يأخذ ما حوله قهراً وعَنوة ، أو كالشجاع الجرىء يهجم على ما يريده ولا يبالى مالقى ولا حيث وقع . . انتهى . فأنت إذا نظرت إلى أبى تمام تجد الفحولة والجزالة والقوة وترى المعانى الدقاق وترى الصنعة من الجناس والمطابقة وما إليهما ، وترى مع ذلك كله التعبير الشعرى ، أى ترى النصاعة والاشراق ووضوح المعالم واطراد النظام وتساوق الأغراض و إحكام الاداء والروعة والجمال والروح القوى الذى يطالعك من بين فِقَره ، ومن هنا يفضل أبو تمام أبا الطيب . قال ابن الاثير : هؤلاء الثلاثة — أبو تمام والبحترى والمتنبى — هم لات الشعر وعُزّاه ومَناتُه ، الذين ظهرت على أيديهم حسناته ومستحسناته ، وجمعت بين الأمثال السائرة وحكمة الحكماء ، وقد حوت أشعارهم غرابة المحدثين إلى فصاحة القدماء ، « أما أبو تمام » فانه رب معان ، وصيقل الباب وأذهان ، وقد شُهد له بكل معنى مبتكر ، لم يمش فيه على أثر ، فهو غير مدافع عن مقام الاغراب ، الذى برّز فيه على الأضراب ، ولقد مارست من الشعر كل أول وأخير ، ولم أقل ما أقول فيه إلا عن تنقيب وتنقير ، فمن حفظ شعر الرجل وكشف عن غامضه ، وراض فكره برائضه ، أطاعته أعنة الكلام ، وكان قوله فى البلاغة ما قالت حذام ، فخذ منى فى ذلك قول حكيم ، وتعلم ففوق كل ذى علم عليم . « وأما أبو عبادة البحترى » فانه أحسن فى سبك اللفظ على المعنى ، وأراد أن يشعر فغنى ، ولقد حاز

طرفى الرقة والجزالة على الاطلاق ، فبينا يكون فى شظف نجد إذ تشبث بريف العراق ، وسئل أبو الطيب المتنبى عنه وعن أبى تمام وعن نفسه فقال أنا وأبو تمام حكيمان والشاعر البحترى ، ولعمرى إنه أنصف فى حكمه ، وأعرب بقوله هذا عن متانة علمه ، فان أبا عبادة أتى فى شعره بالمعنى المقدود من الصخرة الصماء ، فى اللفظ المصوغ من سلاسة الماء ، فأدرك بذلك بعد المرام ، مع قربه إلى الافهام ، وما أقول إلا أنه أتى فى معانيه بأخلاط الغالية ، ورقى فى ديباجة لفظه إلى الدرجة العالية ، « وأما أبو الطيب المتنبى » فانه أراد أن يسلك مسلك أبى تمام فقصرت عنه خطاه ولم يعطه الشعر من قياده ما أعطاه ، لكنه حظى فى شعره بالحكم والأمثال ، واختص بالابداع فى وصف مواقف القتال ، وأنا أقول قولا لست فيه متأثماً ، ولا عنه متلثما ، وذاك أنه إذا خاض فى وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها ، وأشجع من أبطالها ، وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها ، حتى تظن الفريقين قد تقابلا والسلاحين قد تواصلا ، فطريقه فى ذلك تضل بسالكه ، وتقوم بعذر تاركه ، ولا شك أنه كان يشهد الحروب مع سيف الدولة فيصف لسانه ، ما أدى اليه عيانه ، وعلى الحقيقة فانه خاتم الشعراء[1] ومهما وُصف به فهو فوق الوصف وفوق الأطراء ولقد صدق فى قوله من أبيات يمدح بها سيف الدولة :

لاَ تَطْلُبَنَّ كَرِيماً بَعْدَ رُؤْيَتِهِ ... إنَّ الكِرَامَ بأَسْخَاهُمْ يَدًا خُتِمُوا

وَلا تُبَالِ بِشِعْرٍ بَعْدَ شَاعِرِهِ ... قَدْ أُفسِدَ القَوْلُ حتَّى أُحْمِدَ الصَّمَمُ[2]

ولما تأملت شعره بعين المعدلة البعيدة عن الهوى ، وعين المعرفة التى ما ضل صاحبها وما غوى ، وجدته أقساماً خمسة ، خمس فى الغاية التى انفرد بها دون غيره ، وخمس

---

(١) خاتم الشعراء على الحقيقة هو أبو العلاء المعرى فانه لم يظهر بعده شاعر فحل يصح أن يلز مع هؤلاء فى قرن . . .

(٢) لو أن أبا الطيب عاش حتى ادرك المعرى لما قال مثل هذا القول

من جيد الشعر الذى يساويه فيه غيره ، وخمس من متوسط الشعر ، وخمس دون ذلك ، وخمس فى الغاية المتقهقرة التى لا يُعبأ بها ، وعدمها خير من وجودها ، ولو لم يقلها أبو الطيب لوقاه الله شرها ، فانها هى التى ألبسته لباس الملام ، وجعلت عِرضَهُ غرضاً لسهام الاقوام . . انتهى كلام ابن الأثير . وقد آن لنا أن نقول ان هذا الذى يعاب على أبى الطيب ويُظن أنه يَتخوّنه ويَشِينُه هو على الحقيقة سر من أسرار شاعريته لأن مرجعه التوليد الذى لا يؤتاه إلا الشاعر المطلق . . . فالكلام انما هو من الكلام ، وانما يستحق الشاعر هذا اللقب بالتوليد ، وبطريقته فى التوليد تقوم طريقته فى الشعر ، فمن ثَمّ يختلف الشعراء ويمتاز واحد من واحد ، وتَبينُ طَرِيقةٌ منْ طريقة وان تواردوا جميعا على معنى واحد يأخذه الآخر منهم عن الأول . ولقد يأتى مائة شاعر بالمعنى الذى لا يختلف فى الطبيعة ولا فى السياق ولا فى الفهم فيديرونه فى مائة بيت تكون فى مائة ديوان ومع ذلك ترى أحوالهم فيه متباينة ، وصناعتهم فى أخذه مختلفة ، وتراهم قد تناولوه بوجوه كثيرة تُحقّق فيه عمل أمزجتهم ، وتلقى عليه اختلاف أزمانهم ، وتجرى به فى طرق حوادثهم كأنه مع كل منهم قد ولد ونشأ[1] فهو مع هذا قوى ومع الآخر جبار ومع الثالث ضعيف ومع رابع متهالك ، وتارة بدين وأخرى هزيل وثالثة بينهما وهكذا . ولولا ذلك لم يكن الكلام الا تكرارا وبطل فيه عمل العقل ، وأصبح رثا باليا وذهب مع الذاهبين الأولين ، ولم يبق فيه لشاعر الا اقامة الوزن ،

---

(١) ومن هنا لا ينبغى لك أن تظن حين ترى فى شرحنا هذا مثل قولنا ــ بعد شرح بعض الأبيات ــ ان هذا المعنى مأخوذ من قول فلان أو منقول منه أو ينظر اليه ، أنا نقصد بذلك إلى أن أبا الطيب سرقه كما يسرق ضعاف الشعراء وإنما هو التوليد الذى هو من خصائص النوابغ . وإنما ذِكْرُنَا هذه الأشباه والنظائر هو لترى كيف يكون التوليد ، ولتختار ما يحلو ...

ولو كان هذا لنسخ لقب الشاعر من الارض ولم تعد للبيان صناعة ولا بقيت فى القرائح مادة إلهية من الالهام

وشأن المتنبي كالشأن فى نوابغ الدنيا ، فالشاعر النابغة لايمهر بارادته ولا ينبغ بأن يخلق فى نفسه مادة ليست فيها وانما هو يولد مُهَيّأ بقوى لاتكون إلا فيه وفى أمثاله ، وهو زائد بها على غيره ممن لم يرزق النبوغ كما يزيد الجوهر على الحجر أو الفولاذ على الحديد أو الذهب على النحاس . ثم تتفاوت هذه القوى فى النوابغ فتتنوع وتتباين وتعمل فيها أحوالهم وأزمانهم وحوادثهم ، ومن ثَمَّ يجتمع لكل منهم شخصية ويستقل منها بطريقة ومذهب ، فاذا تناول معنى من المعانى تناوله على طريقته فاما حذف منه وإما زاد فيه وإما غيره وقَلَبَهُ وإما صبَّ على حذوه معنى جديداً يلم به أو يشبهه أو لايكون فيه إلا أنه جاء على طريقه حسب ، فكثيراً مايقرأ النابغة كلاماً لغيره أو يتأمل خاطراً أو يشهد أمراً فاذا كل ذلك قد أوحى اليه وانعكس على مرآة ذهنه بمعان مبتكرة طريفة لاتشبه ما كان بسبيله وجهاً من الشبه لاقريباً ولا بعيداً وليس فيها إلا أنها جاءت من ذلك الطريق وهو بعدُ لم يتعمل لها ولم يتكلف ولم يصنع شيئاً وإنما هو تلقى من ذهنه وتلقى ذهنه من قوة لايدرى ماهى ولا أين هى . . .

وكما يُختار النبى يُختار النابغة وليس كل الناس أنبياء ولا كلهم نوابغ ولا يصنع النبى أكثر من أن يتلقى عن الوحى وكذلك يتلقى النابغة عن البصيرة وهى تكون فيه هو وحده بمقام الملَك من الملائكة أو الشيطان من الشياطين على حين تكون فى سواه بمقام الأنسان من الناس . فالرجل الذكى أشبه بانسانين أحدهما هو والآخر بصيرته وهو بذلك أقوى من غيره ، ولكن النابغة و بصيرته أشبه بانسان وملك أو انسان وشيطان فهو دائماً أقوى من القوة وهو دائما متصل بشىء فوق الانسانية .

واذا تقرر هـذا فليس للنابغة اختيار فيما يأتى به وليس عليه إلا أن يأخذ مايؤتاه كما يتهيأ له على طريقته ؛ ومن هنا ترى المتنبي يأتى أحياناً بالتعقيد المستكره واللفظ المتكلف وتراه يتعسف و يتخبط وَيُسفّ ومع ذلك لاينفى مثل هذا من شعره ولا يحذفه وهو قادر على أن يَغْنَى عنه وليس فى حاجة اليه ولكنه بعض طريقته التى انطبع عليها فلا يستطيع حين يجيئه الردئ أن يجعله جيداً وليس إلا أن يأخذه كما هو لأنه هو الذى انبثق له عن الجيد كما تضرم النار من مادة فاذا هى شُعَل ودخَان ثم تضرمها من مادة أخرى فاذا هى لهب صاف يتألق . ولو أنك أردتها من المادة الأولى كما تجىء من الثانية لأطفأتها وذهب دخانها ونارها معا .

وهذا سر لم يتنبه اليه أحدممن كتبوا عن المتنبى فاشْدُدْ يدك عليه وادرس المتنبى على هذه الطريقة فستجده نابغة فى جيده ورديئه، وستجده لايستطيع غير المستطاع ، وستجد طريقته كأنما فرضت عليه فرضا لأنه كذلك أُلْهم وعلى ذلك ركب طبعه وكان ظلامه ظلاما لتسطع فيه النجوم .

* * *

أما الأفاضة فى ترجمة المتنبى ونشأته وأخلاقه وما إلى ذلك فلا يأتى فيها أحد بجديد . . وقد أصبح المتنبى دون غيره من شعراء العربية كأنه فى غير حاجة إلى الترجمة اذ هو كالقطعة من تاريخ الأدب فالكلام عنه متداول مشهور وهذا بعض ما اختص به، فقد تحتاج مع شعر كل شاعر إلى ترجمته ولكنك لاتحتاج من أبى الطيب إلا إلى شعره وترى شعره ترجمة روحه ولذلك اجتزأنا فى هذه الكلمة ببيان سره الشعرى[1] ثم أنت بعد ذلك فى حقيقة الرجل ،أى شعره وشرح شعره الذى نقدمه اليك . . .

---

(١) ومع ذلك لم نرمندوحة عن اجمال ترجمته وأخلاقه واذا أبيت الا التوسع فى هذا فعليك بكتاب صديقنا الفاضل محمد كمال حلمى بك « أبو الطيب المتنبى » حياته وخلقه وشعره وأسلوبه .

* * *

وبعد فأما هذا الشرح فلا يُلْقِيَنَّ فى رُوعك أنه بِدْع فى الشروح وأنه شىء مبتكر جديد ، وهل غادر الشُرّاحُ مِنْ مُتَرَدَّمِ ؟ وإنما كل مزية هـذا الشرح أنه تلاقت فيه كل الشروح بعد شىء من التهذيب والتنقيح والتحوير، أو بعد أن خلصت من عَكَرِها خلاص الخمر من نَسْجِ الفِدَام كما يقول أبو الطيب ، و بذلك توافر فيه مالم يتوافر لأى شرح من شروح المتنبى على حدته فليس يغنى عنه شرح ولـكنه هو ـ بحمد الله ـ يغنى عن سائر الشروح ، فهو كما يقول أبو الطيب

يُدِلُّ بِمَعْنَى وَاحِدٍ كلُّ فاخِرٍ وَقَدْ جَمَعَ الرَّحْمَنُ فِيهِ المعَانِيَا

عبد الرحمن البرقوقى

١٢ جمادى الأولى سنة ١٣٤٩ هـ
٥ اكتوبر سنة ١٩٣٠ م